ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلة أبعاد
مجلد 09، العدد 01 (خ)، 2022

القاعدة الدينية للفلسفة والتصوف (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة)

The Religious basis of philosophy and Sufism (holy Qur'an and noble of the prophet's Sunnah)

حشلوف محمد العابد * Hachelouf Mohammed El Abed hachmohammedabed@gmail.com	فلسفة	جامعة محمد بن احمد وهران 02- الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2021/04/21	تاريخ القبول: 2021/10/16	تاريخ النشر: 2022/05/05

ملخص: نحاول في هذه الدراسة بشكل عام، التطرق إلى دور "النص الديني" من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة في عمليَّة التقعيد لحقلي "الفلسفة والتصوف"، وإثبات مشروعيَّتهما من الناحية الدينية، حيث كان لكل حقل على حدة نصيباً من الحضور في "النص الديني المقدس" فاستمدت (الفلسفة) بكل إشكالاتها هذه المشروعية من عديد الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، وذلك بثبوت مفهوم "الحكمة" فيها بمعناها الفلسفي الدقيق.

كما كان لحقل (التصوف) نفس النصيب من الحضور في "النص الديني المقدس"، فهناك عديد الآيات التي تتوافق مع مبادئ الصوفية ومناهجها، على اختلاف طرقها وفرقها، كما تَّخَذَ الصوفية من الأحاديث النبوية الشريفة مصدراً أساسياً لهم في إثبات منشأهم الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: (الفلسفة، التصوف، القرآن الكريم، السنة النبوية الشريفة، الحكمة).

Abstract : In this study, We try, in general, to address the role of the "religious text " from the verses of the noble Qur'an and the Noble Prophetic hadiths in establishing the two fields (philosophy and mysticism), and proving their legitimacy from the religious point of view, as each field separately had a share of attendance in the "sacred religious text".

Philosophy, With all its problems, derived this legitimacy from many noble Qur'anic verses and honorable prophetic hadiths, by establishing the concept of "wisdom" in it in its precise philosophical sense.

Just as the field of Sufism had the same share of attendance in the "Sacred Religious text" there are many verses that correspond to the principles and methods of Sufism, with its different methods and sects, and Sufism took the honorable prophetic hadiths as a primary source for them in proving their Islamic origin.

* المؤلف المرسل: hachmohammedabed@gmail.com

Keywords: philosophy; mysticism; ;the noble Qur'an; the Sunnah; Wisdom.

1. مقدمة:

يعتبر حقلي (الفلسفة والتصوف) من أبرز وأهم الحقول المعرفية التي عرفتها الفلسفة الإسلامية على طول مدارها في تاريخ الفكر الفلسفي الإنساني بشكل عام، لما احتوياه من مباحث ومواضيع حرَّكت وشغَّلت عقل الفلاسفة المسلمين ودفعته لفعل التفلسف والتفكُّر.

كما لم يكن ظهور (الفلسفة والتصوف) وليد أية أفكار وإيديولوجيات،أومذاهب واتجاهات معينة فرضتها على المجتمع الإسلامي لغرض معين، بل كان ظهورها كنتيجة لحتمية دينية استمدت مشروعيتها منه، والمتمثلة في النص الديني من آيات "القرآن الكريم" وأحاديث "السنة النبوية الشريفة"،فكان بذلك النص الديني قاعدة لهما، ومنه سنسعى لإبراز هاته المشروعية الدينية لحقلي(الفلسفة والتصوف)، ودور النص الديني في إرساء مواضيعها وطرحها في فضاء الفلسفة الإسلامية، متجاوزين بذلك جميع المواقف المخالفة لهذا الطرح، والتي أرجعت نشأة (الفلسفة والتصوف) لعوامل أخرى كحركة "الترجمة والنقل" التي عرفتها الفلسفة الإسلامية في بدايات نشأتها الأولى.

- فإلى أي مدى قَعَّدَ "النص الديني"لمشروعية الفلسفة والتصوف؟

- وهل يمكننا الحديث عن عوامل أخرى كان لها نفس دور "النص الديني" في إثبات هذه المشروعية؟

2. مشروعية "الفلسفة" من النص الديني:

1.2 القرآن الكريم:

إذا كانت "الفلسفة" في مفهومها اللُّغوي والاصطلاحي العام كما شهرت عند (اليونان) تعني "الحكمة" فماذا يمكن أن يكون لمعنى الحكمة من الدلالة عربيا وإسلاميا؟ فمن الواضح المبيّن أن لفظ "حكمة" يجسّد كلمة عربية شائعة الاستعمال وشهيرة التداول، وردت في (القرآن الكريم)، فذكرها في عدة مواضع من سُوَّرِه وآياته، مقرونة بالثناء والمدح لدلالتها على مضامين الانفتاح على أوجه الحق والتمييز بينها وبين أوجه الباطل، بما تحمله هذه الدلالات من صفاء المعقولية وتزكيتها أمام ذكاء العقل وحساسية البصيرة واستجابة الوجدان، فلا يتسم بنيل الحكمة إلا من اتسم بنيل الخير الكثير، من هذا قوله تعالى: "يُؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا"

[البقرة: الآية 269]، ومنها قوله: "وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلَّمك ما لم تكن تعلم" [النساء: الآية 113]، وقوله أيضا: "ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم" [البقرة: الآية 139]، كما وردت في الثناء على أحد الحكماء البارزين في التاريخ المعروف بـ(لقمان الحكيم) بما يستوجب شكر الله على اتصافه بها في قوله تعالى: "ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله" [لقمان: الآية 12]، ومنها مخاطبا رسوله الكريم بإقران دعوته بالحكمة في قوله تعالى: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" [النحل: الآية 125] (خطاب، ع، 2008، ص: 17- 18).

بذلك، فإن الدلالة التي جاء بها مصطلح "الحكمة" في نصوص القرآن الكريم، يتطابق تطابقا تاما مع معناها الفلسفي، ويتضح لنا ذلك جليا باقترانها مع مفاهيم مثالية ذات قيم أخلاقية بلُغة الفلسفة مثل: (الخير، العلم التزكية، الشكر والموعظة...)، وكان هذا الاقتران لما للحكمة من أهمية بالغة ودرجة عالية عند الله [سبحانه وتعالى].

كما وصف "القرآن الكريم" الله عز وجل (بالحكيم)، أي (الحكيم) المطلق المُتميِّز عن كل خلقه، وذلك في ثلاث وتسعين آية، كُلُّها مكررة الاقتران بصفات أساسية ثلاث، هي: "العلم"، "العزة"،"الخبرة"منها قوله تعالى: "قالوا سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علّمتنا، إنك أنت العليم الحكيم" [البقرة: الآية 32]،وهنا (اقتران الحكمة بالعلم)، وقوله: "وإنك أنت العزيز الحكيم" [البقرة: الآية 129]،وهنا (اقتران الحكمة بالعزة)، وقوله: "وهو الحكيم الخبير" [الأنعام: الآية 18]،وهنا(اقتران الحكمة بالخبرة)، ووفقا لهذا الاقتران ذاته يتّم ذكر بقية الآيات في مختلف مواضعها من السور (خطاب، ع، 2008، ص: 18).

فأوَّل ما جاء في النص القرآني حول "الحكمة" بعد إشارته لها وثبوتها، هو اقترانها بالله [عز وجل] من حيث الوصف فكان من أسماءه سبحانه وتعالى (الحكيم)، وهذا ما يُعزِّز مكانة الحكمة في النص الديني من آيات القرآن الكريم.

وقد نوَّه الإسلام بالعقل والتعويل عليه، ولا تأتي الإشارة إلى العقل في القرآن الكريم إلَّا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، وذلك ما يُؤخذ من كل الآيات القرآنية التي وردت الإشارة فيها إلى العقل مثل: "يعقلون، يفقهون، يتفكرون، ينظرون يبصرون، يعتبرون، يتدبرون، يعلمون، يتذكرون"فقد أراد القرآن أن يعبر بذلك عن الوظائف العقلية التي أراد الله العقل الإنساني أن يمارسها في هذا الوجود، والإسلام عندما يخاطب العقل فإنه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه، فهو يخاطب

العقل الذي يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميّز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتأمل ويعتبر ويتعض ويتدبر ويحسن التدبر والرؤية (زقزوق، م، 1984، ص: 07).

فهذه الإشارة إلى العقل وضرورة العمل به وتطبيق وظائفه، لا تنم إلا عن تطابق مفهوم "الحكمة" ودلالتها في النص القرآني مع دلالتها بمفهومها الفلسفي، وهذا ما يُؤكد لنا مشروعية فعل التفلسف من المنظور الديني، متجاوزة بذلك العامل العقلي المنطقي، وعامل حركات الترجمة والنقل التي شوَّهت إلى حد ما نظرة الكثيرين إلى حقيقة الفلسفة.

لقد تنوع الخطاب القرآني في ذكر العقل ودلالاته ومعانيه ليشمل كل فعل متعلق (بالنظر والتأمل والاستنباط والتعلم والتفقه والتبصر والتدبر) إلى غير ذلك مما يؤكد على استيعاب النص لكل معاني التفكير الإنساني، ولقد ورد فعل العقل في القرآن الكريم بمختلف اشتقاقاته وكلها تدل على التفكير الإنساني: قال تعالى: "يسمعون كلام الله ثم يحرقونه من بعد ما عقلوه" [البقرة: الآية 75]، والتعقل هنا وعلى هذا النحو بمعنى (الضبط والفهم)، وقوله تعالى: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون" [البقرة: الآية 44] يقول (الزمخشري) في معنى قوله تعالى "أفلا تعقلون" توبيخ عظيم بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وكأنَّكم في ذلك مسلوبو العقول لأن العقول تأباه وتدفعه، وقال تعالى: "كذلك يحيي الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون" [البقرة: الآية 73] أي يريكم الآيات والحجج الدالة على نبوة (محمد صلى الله عليه وسلم) لتعقلوا وتفهموا أنَّه صادق فيما جاءكم به من الحق، وقوله تعالى: "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" [يوسف: الآية 2]، لكي تفهموه وتحيطوا بمعانيه، ولا يلتبس عليكم (مراد، س، 2000، ص: 44- 45).

قد وعى رجال الفكر الإسلامي القيمة الكبرى التي يسبغها الإسلام على العقل فقال عنه حجة الإسلام (الغزالي 456-505هـ) أنه: "أنموذج من نور الله"، وقال عنه (الجاحظ) توفي عام (255هـ) أنَّه: "وكيل الله عند الإنسان" (زقزوق، م، 1984، ص: 07).

لقد أحاطت النصوص القرآنية بالعقل البشري من جميع جوانبه، فأشار إليه من ناحية المعنى والدلالة والوظائف والأهمية في الحياة، والحث على العمل به، إلى جانب التوبيخ في حالة عدم إعماله، فعمل العقل هنا من المنظور الإسلامي هو نفسه فعل

التفلسف بكل ما فيه من تأمل واستدلال واستغراق، وهذا ما يقودنا إلى القول أن النص الديني القرآني، قد فتح المجال لعملية التفلسف لجميع العقول بمختلف درجاتها، ولم تكن حكرا على فئة معينة.

عَبَّرَ القرآن أيضا عن العقل بلفظ (اللّب) في كثير من المواضع منها قوله تعالى: "و تزوَّدوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب" [البقرة: الآية 197] فقوله (يا أولى الألباب) معناه يا أولى العقول، وقوله تعالى: "والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر ألا أولى الألباب" [آل عمران: الآية 7] يقول (الزمخشري): "مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمل"، كما جمع القرآن بين العقل واللُّب كمصدرين من مصادر المعرفة، وأحيانا يرد لفظ القلب للتعبير عن العقل كأداة للفكر والفقه لا تناقض العقل أو تعارضه وإنَّما توافق العقل وتسانده في سياق متصل، ولقد وردت هذه الظاهرة في كثير من المواضع منها قوله تعالى: " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها" [الأعراف: الآية 179]، وقوله تعالى: "وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون" [التوبة: الآية 87]وهذا المنهج القرآني حل التناقض الذي أثاره دعاة المادية الحديثة الذين لا يؤمنون إلا بالوقائع المادية المدركة حساً (مراد، س، 2000، ص ص، 45...47).

بالتالي يتضح لنا جليا دور النص القرآني في تحريك وتفعيل العقل في كل ما هو متاح لتحريكه وتفعيله في الحياة البشرية، فحث على إعماله وإغراقه في التأمل والتفكير لفهم أعمق للحياة وأسرار الكون، ويكون ذلك سبيلا للتقرب أكثر من الله عز وجل. فالعقل البشري هو أشرف نعمة أنعمها الله على خلقه من البشر وبها يتميَّز عن باقي المخلوقات والكائنات، لا وبل هو جوهر الإنسان في حد ذاته، فإذا فقده فماذا كسب؟ هذا من جهة....ومن جهة أخرى، يزيد يقيننا بالدور الذي لعبه النص الديني من آيات القرآن الكريم في التقعيد للفلسفة وعملية التفلسف بشكلها العام وكما أشرنا هو رد مباشر على الفئة التي أرجعت الدور الرئيسي لظهور الفلسفة لحركات الترجمة والنقل التي حدثت إبان العصر العباسي، فالنص الديني كان سباقا في عملية التقعيد الفلسفي بإرساءه لمفهوم "الحكمة" والدعوة إلى إعمال العقل وإبراز مكانته في الحياة كما سبق وأن ذكرنا.

لم يترك الإسلام بابا من أبواب النظر إلا وقد دعا إليه ولم يترك طريقا من طرق (الاستدلال) إلا وقدمه منهجا يلتزم به الباحثون والدارسون في كل قضايا دينهم ودنياهم

فالدعوة إلى النظر والاستدلال دعوة شاملة تبدأ من النفس ثم تتسع دائرة النظر لتشمل الطعام والشراب وعالم الحيوان وعالم البحار وأقطار السموات والأرض...وكل ما يحيط بالإنسان.فاتلُ قوله تعالى: " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جددُ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنّما يخشى اللّه من عباده العلماء إن اللّه عزيز غفور" [فاطر: الآية 27-28] ألا ترى أن في تذييله الآية بحصر خشية اللّه في العلماء دلالة على أن المراد بالعلماء هنا العارفون بأسرار هذه الشؤون الطبيعية، والواقفون على حقائق المساتير الكونية فوق علمهم بالأمور الإلهية.واتلُ قوله تعالى: " ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين" (بكسر اللام) [الروم: الآية 22]، ألا ترى أن في تذييل هذه الأمور الكونية بقوله تعالى (إن في ذلك آيات للعالمين) إشعارا بأن المقصود بالعالمين الذين يلمون بما هدى إليه الباحثون من هذه المعارف الطبيعية والإنسانية.فساحة التأمل والنظر والبحث والاستدلال تَتَّسع لكل ما يحيط بالإنسان من ظواهر طبيعية وكونية وإنسانية اجتماعية، ولا يجوز الوقوف عند حدود مرسومة من قبل- بل لا يوجد شيء في الوجود كله بعيدا عن دائرة النظروتتنوع الآيات التي تحث على النظر في أساليبها المخاطب بها الإنسان خطاب تنبيه وتحفيز، يقول تعالى: " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت" [الغاشية: الآية 17-18] (مراد، س، 2000، ص: 55).

بذلكلم يحصر النص القرآني حيّز التأمل والتفكُّر للعقل البشري في مجال معيَّن من مجالات الحياة المُتعدِّدة، فشمل جميع الموجودات باختلاف أنواعها بدون حدود تطابقاً مع طبيعته الميتافيزيقية اللَّامحدودة، على عكس العالم المادي المحدود، وذلك لكي يفهمه ويفسره من خلال اكتشاف النواميس التي تحكمه. وهذا من حكمته سبحانه وتعالى.

2-2- السنة النبوية الشريفة:

وكما ورد لفظ "الحكمة" في القرآن الكريم، فقد ورد أيضا في أقوال [الرسول صلى الله عليه وسلم]منها قوله:"كلمة من الحكمة يتعلّمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها". (قال العراقي: تقدَّم بنحوه وكأنَّه يُشير إلى ما ذكره المصنف أولاً باب من العلم يتعلَّمه

الرجل خير له من الدنيا وما فيها وذكر أنَّه موقوف على الحسن البصري أو إلى حديث: كلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعمل بها ويُعلِّمُها خير له من عبادة سنة. وذكر أنَّه من مراسيل زيد بن أسلم وقد أخرج الديلمي عن أبي هريرة: كلمة حكمة يسمعها الرجل خير له من عبادة سنة وسنده ضعيف. قال ابن السبكي: (288/6) لم أجد له إسناداً) ومنها قوله: "إنّ الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتّى يدرك مدارك الملوك" (رواه أبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في بيان العلم وعبد الغني في أدب المحدث من حديث آنس بإسناد ضعيف).ومنها قوله: "إنّ من الشعر لحكمة" (صحيح البخاري) ومنها قوله: "لا حليم إلّا ذو عثرة ولا حكيم إلّا ذو تجربة". (رواه أحمد والترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب). ومنها قوله: "الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها"، (رواه الترمذي وابن ماجة من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-)ولا شك أنه لهذه الاعتبارات لمحتويات الحكمة سمّى الله تعالى نفسه "حكيما"، وأتى صفوة خلقه الحكمة، وهم (الأنبياء والمرسلون)، فكانوا بما أتاهم الله من الحكمة يدعون الناس إلى الله، ويقودونهم إلى الحق بما تسمح به طاقتهم، ويوجّهونهم إلى الخير وفق قيّم السماء ويعلّمونهم طرق التعامل في الحياة بما يتماشى وقيَّم (الحق والخير والعدل والصلاح)، مع أنفسهم، ومع الآخرين، ومع كافة الموجودات والأشياء من حولهم، ويوفرون لهم أَصْوَّب الحلول للمشكلات التي قد يواجهونها حولهم (خطاب، ع، 2008، ص: 20).

يمكن القول بناء على ما سبق إنّ المعنى العام للفظ "الحكمة" في الثقافة العربية والإسلامية يعني التوق والتطلع إلى المعرفة، وحب الكشف عن الحقائق والأسرار وفك الألغاز والرموز، والتعلق بموجبات العلم، والارتباط بالقيم الأصلية للوجود ومصدر الوجود (خطاب، ع، 2008، ص: 21).

3. مشروعية "التصوف" من النص الديني:

3-1 القرآن الكريم:

بالرغم من خُلُّو القرآن الكريم من كلمة "تصوف" ومشتقاتها، فإننا نستطيع أن نشير إلى أثر القرآن الكريم في نشأة التصوف، ومع أن بعض آيات القرآن تشير إلى إباحة متع الدنيا، وذلك في مثل قوله تعالى: "وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا" [القصص: الآية 77]، فإنَّ آيات كثيرة تشير إلى ازدراء هذه الحياة وتستهجن التمسك بها، أي بهذه المتع، أو الإعجاب بها،ففي ازدراء هذه الحياة نجد مثلا الآيات:

"اعلموا أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حُطما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" [الحديد: الآية 20] وقوله تعالى: " زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب" [آل عمران: الآية 14] (تركي، إ، 2015، ص: 88)، ففيما يتعلق بمجاهدة النفس نجد الآية الكريمة: " وأمَّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى" [النازعات: الآية 40-41]، وإلى مقام التقوى أشارت الصوفية إلى قوله تعالى: " إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم" [الحجرات: الآية 13]، وإلى الزهد قوله تعالى: "قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى" [النساء: الآية 77]، وإلى التوكل بقوله تعالى: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" [الطلاق: الآية 3] (عون، ف، 1983، ص: 84- 85).

وإلى الشكر بقوله: " وإن شكرتم لأزيدنكم" [إبراهيم: الآية 7]، وفيما يتعلق بالصبر قوله سبحانه: "بشّر الصابرين" [البقرة: الآية 155]، وإلى الرضا بقوله: " رضي الله عنهم ورضوا عنه" [المائدة: الآية 119]، وإلى الحياء بقوله: " ألم يعلم بأن الله يرى" [العلق: الآية 14]، وإلى المحبة بقوله: " يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه" [المائدة: الآية 54]، أما الأحوال فقد أشار إليها القرآن بطريقة أو بأخرى فقال سبحانه وتعالى: " يدعون ربهم خوفا وطمعا" [الأعراف: الآية 56]، وقال: " من كان يرجوا لقاء الله فإن أجل الله لآت" [العنكبوت: الآية 5]، وقوله: " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن" [فاطر: الآية 34] (عون، ف، 1983، ص: 84- 85).

كذلك نجد هناك آيات في القرآن الكريم تشير إلى أمثلة لمن تمسك بزخرف هذه الحياة الدنيا ومن اطمئن إليها وما آلت إليه جنته من خراب، وأن الحياة الدنيا على هذا النحو لا يصح الركون إليها لأنها ليست دائمة، وذلك كما ورد في (سورة الكهف) ابتداء من قوله تعالى: " واضرب لهم مثلا رجلين...." [الكهف: الآية 32 وما بعدها]، وفي (سورة القلم) ابتداء من قوله تعالى: " إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة...." [القلم: الآيات 17- 33]، وبالإضافة إلى ذلك فإنَّه من الملاحظ أن الحديث القرآني عن (موسى عليه السلام) وصاحبه، الذي آتاه الله من لدنه علما لم يستطع (موسى) الاطلاع عليه، كان يمثل أحد

الأسس التي ارتكز عليها الصوفية في تفرقتهم بين (علوم الظاهر) و(علوم الباطن)، وفي آرائهم عن (المعرفة اللَّدُنية أو الإلهامية) (تركي، إ، 2015، ص: 88- 89).

ومنه، فقد حضر حقل "التصوف" في النص القرآني بالرغم من عدم إشارة "القرآن الكريم" إليه بصفة مباشرة، وهذا ما يبرر مشروعيته ويُقعِّد له دينيا، وجعل الكثير من المسلمين يتحلوا به ويلتزموا بمبادئه متجاوزين كل محاولات التحريم من الرافضين له بحجة أنَّه مجرد دجل وبدعة دخيلة على المجتمع الإسلامي أتت من ثقافات أخرى.

وباختصار فإن ثمة آيات عديدة استطاع الصوفية أن يفسروا رياضاتهم ومجاهداتهم ومقاماتهم وأحوالهم على ضوئها، وهم بهذا إنما أرادوا أن يوضحوا للأعداء والأصدقاء على حد سواء أن حركتهم حركة شرعية وأنها تستند إلى الفهم الصحيح للقرآن والسنة، وأن القرآن علم وعمل ولا يصح علم بلا عمل، ولا عمل بلا علم، وعلى المرء أن يهتم بالباطن أولا فإذا صلحت السريرة صلح الفرد، أي أن على المرء أن يعمل بما يؤمن به بحيث تكون أعماله صورة مطابقة لما يبطن وهنا نجد النزعة الأخلاقية الصوفية في أوج كمالها وفضلا عما سبق فإن الإسلام نفسه قد مَهَّدَ الطريق للتصوف من باب آخر وهو أن الدين الإسلامي كما يرى (نيكلسون) دين من أهم أركانه الإيمان بالحياة الآخرة وبالعذاب لمن طغى وعصى وتكبر، وبالنعيم لمن آمن واهتدى، وهذا الإيمان المتعلق بالحياة الآخرة من شأنه أن يفرض على الإنسان سلوكا معينا أقل ما يقال فيه عدم الاهتمام بشؤون الدنيا والاهتمام بما يتعلق بالحياة الأخرى، ومن هذه الآيات وغيرها، استطاع الصوفية أن يجعلوا وجود التصوف في الإسلام وجودا شرعيا وأنَّهم إذا كانوا قد قَرَّروا رأيا غير رأي الفرق الأخرى وإذا كان لهم اتجاه خاص مختلف عن اتجاهات الفرق الأخرى فإنَّهم في الحقيقة، كما ذكروا، ليسوا خارجين عن الدين الإسلامي (عون، ف، 1983، ص ص: 85...87).

بذلك كله تكون الصوفية قد أَسَّسَت لاتجاهاتها المختلفة من خلال قاعدة دينية عمادها آيات القرآن الكريم التي تتوافق مع مبادئها في الحياة الدنيا، وأهدافها المسطرة للفوز في الحياة الآخرة،وربما يكون أكبر دليل على موقفنا هذا المتمثل في مشروعية "التصوف" من الناحية الدينية، هو استمرار الفرق الصوفية باختلافها منذ الإرهاصات الأولى لظهورها وحتى وقتنا الراهن، بالرغم من عديد المحاولات من الرافضين للتصوف

والمتصوفة على مدار حقب زمنية ليست بالقصيرة، فلو لم يكن لها قاعدة دينية، لما صمدت كل هذه المدة الزمنية، ولكان مصيرها الزوال لا محالة.

2-3 السنة النبوية:

تأتي السنة النبوية في المرتبة الثانية التي يستند إليها الصوفية في بيان أن اتجاههم إسلامي النشأة والمنبت،فالرسول [صلى الله عليه وسلم] كان زاهدا في حياته ولقد نص على أن الزهد عبادة وفضيلة ينبغي على كل مسلم أن يتحلى بها (عون، ف، 1983، ص: 89)، فإذا أردنا أن نتحدث عن السنة النبوية المطهرة باعتبارها أحد المصادر الأساسية للتصوف الإسلامي، فإننا سنضطر إلى إيجاز القول في هذه المسألة، لأن حياة [الرسول صلى الله عليه وسلم] بما تتضمَّنُه من أقوال وأفعال ذات مغزى روحي يضيق مثل هذا المقام عن الإحاطة بأهم جوانبها، وعلى أية حال، فإنه من الثابت أن أحاديث [الرسول صلى الله عليه وسلم] وسيرته فيها حث على الزهد فقال: " أزهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما أبدى الناس يحبك الناس" (رواه ابن ماجة والطبراني والحاكم والبيهقي من حديث سهل بن سعد ورواه ابن عساكر من حديث ابن عمر وصحَّحه الألباني) ويقول أيضا: " إذا رأيتم من يزهد في الناس فادنوا منه، فغنه يلقّى الحكمة" (رواه أبو يعلي في "الترغيب والتهذيب" وفيه عمر بن هارون البلخي وهو متروك) (تركي، إ، 2015، ص: 90)، وقال [صلى الله عليه وسلم]: " إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره بعيوبه" (رواه الديلمي في مسند الفردوس ورواه كذلك البيهقي في الشعب ورواه البيهقي أيضاً عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً)، لقد كان [صلى الله عليه وسلم] مثالا للبساطة والنزاهة، فلم يكن يأكل مثلا حتى يشبع ولم يكن يسعى إلى جمع المال وتكديسه ولم يكن محتقر ما دونه ومكبر ما فوقه، لقد كان يبجل الصغير قبل الكبير ويهتم بالفقير قبل الغني (عون، ف، 1983، ص: 90).

كما أشار [صلى الله عليه وسلم] إلى الحذر من شهوات النفس، إذ يقول: " أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك" (حديث ضعيف لم يرد إلا عند الصوفية)، وقال بعد فتح مكة: " انتقلنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"قالوا: " وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟" قال: " جهاد النفس" (رواه البيهقي بسند ضعيف وقد استشهد به الصوفية كثيرا). كذلك كانت حياة الرسول الكريم قبل البعثة وبعدها أسوة للصوفية (تركي، إ، 2015، ص: 90)، فكان قبل بعثته يذهب إلى (غار حراء) بعيدا عن صخب الحياة وهمومها

يقصد التعبد والتأمل في الوجود، ومعرفة نفسه وإدراكها وإدراك علة الوجود (عون، ف، 1983، ص: 90)، ليحيا حياة روحية خالصة، حتى صفت روحه وصقل قلبه استعدادا لتلقي النور الإلهي والتنزيل الرباني، وقد كان ذلك بمثابة البذرة الأولى التي انبثق منها زهد الزهاد والأساس الأول الذي أقيم عليه تصوف الصوفية (تركي، إ، 2015، ص: 91).

إلى أن نزل عليه القرآن هناك حيث قال له (جبريل عليه السلام): "اقرأ"، ولقد كان من غير المعقول أن يهبط الوحي على [الرسول صلى الله عليه وسلم] وهو منغمس في أهوائه وميوله ويعبد ما كان يعبده الجهلة من العرب، إن تعبده في (غار حراء) كان مقدمة ضرورية لا بد منها لهبوط الوحي، مقدمة لا بد أن يزيد من خلالها تطهير نفسه ومجاهدتها حتى تصفو صفاء كاملا وحتى يرق حسه لمعرفة الأمور مباشرة وحتى يصفو قلبه وتجلو مرآته بحيث يصير بوسعه إدراك الوجود كله وما يقتضيه هذا الوجود مباشرة (عون، ف، 1983، ص: 90- 91).

إذن، يتضح لنا جلياً مدى تأثير السنة النبوية الشريفة على الاتجاه الصوفي بجميع طرقه، فمهما اختلفت طرق الصوفية، إلا أنها تلتقي في قاعدة دينية واحدة مفادها (القرآن الكريم) و(السنة النبوية الشريفة).

كذلك كانت حياته [صلى الله عليه وسلم] بعد البعثة أسوة لهم، إذ رُوي أنه كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فلما سألته (السيدة عائشة): " لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وتأخر؟" قال: "أفلا أكون عبدا شكورا" (متفق عليه)، وقد كانت مثل هذه الأحوال النبوية نبراساً للصوفية في مجاهداتهم الروحية (تركي، إ، 2015، ص: 91).

ليس هذا فحسب، بل إن المتصوفة قد اتخذوا من مسألة (الإسراء والمعراج) أكبر دليل على ما يمكن أن يحدث للنفس البشرية من رؤية ومشاهدة واطلاع على معرفة أمور لا يستطيع المرء في حياته العادية، ومن خلال اعتماده على الحس والعقل، أن يصل إليها، ومن المؤكد أن الغالبية الكبرى من المتصوفة قد أكدوا على أن (الإسراء) كان بالروح فقط وليس بالجسد، إذ لا قيمة للجسد في هذه المسألة، لأن الجسد من حيث هو كذلك لا يرى ولا يسمع، إذ أن المسائل الخاصة بالمعرفة كلها في الحقيقة من شأن "النفس الناطقة" (عون، ف، 1983، ص: 91)، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان (المعراج)

النبوي ملهما للصوفية للحديث عن المعراج الروحي للنفس الإنسانية التي تتطهر من رجس الحياة الدنيا حتى تشرق عليها الأنوار الإلهية (تركي، إ، 2015، ص: 91).

أمَّا فيما يتعلق بأخلاق النبي فيذكر أنه كان أحلم الناس وأشجعهم وأعدلهم وأجودهم، لا يبيت عنده درهم ولا دينار وإن بقى طرفه لا يأوي منزله حتى يبرأ منه من يحتاجه وفي هذا إشارة إلى الزهد في الدنيا، وما سُئل قط فقال لا وفي هذا إشارة إلى الرضا والقناعة، كان يغضب لربه لا لنفسه، نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء، خافض الطرف وكان متواصل الأحزان دائم الفكر لا يتكلم في غير حاجة، كثير البكاء والضراعة، لا يهوله شيء من أمر الدنيا ولا يُحقّر مسكينا لفقره ولا يهاب ملكا لملكه، وبإيجاز نستطيع أن نحصر المصدر النبوي في نشأة التصوف الإسلامي في: (أخلاق النبي ثم في آدابه عليه السلام في المأكل والملبس وأخيرا في أقواله ودعائه) (عون، ف، 1983، ص: 91- 92).

خاتمة:

في مجمل القول، يمكننا الخروج بخلاصة مفادها أنَّ"النص الديني"كان العامل الأساس لظهور حقلي (الفلسفة والتصوف).

فقبل الإسلام، لم يكن هناك ما يمكن أن نسميه فلسفة أو تصوف بالمعنى الحقيقي، حيث كانت الأفكار مشتتة ومتناثرة في شكل "شعر ونثر"، فانعدم التفسير والتعليل في البحث عن العلاقات بين جميع الأشياء المُتاحة لهم في ميدان المعرفة بشتى أنواعها، وغلب عليهم الطابع الخرافي والأسطوري في نمط تفكيرهم وسيادة العادات والتقاليد والأعراف في سلوكهم الاجتماعي، فبمجيء الإسلام توحَّدت أفكارهم وتآلفت فيما بينها واتخذت سلوكياتهم المجتمعية منهجا أخلاقيا راقيا ارتقت معها مجتمعاتهم وانتقلت من طابع التخلف والهمجية إلى طابع التمدن والتحضر.

إذن، فمدى النص الديني في عملية التقعيد لنشأة (الفلسفة والتصوف) كان عميقا وواسعا، فلولاه لما وصل الفكر الفلسفي الإسلامي بشكل عام إلى تلك المنزلة التي نالها في تاريخ الفلسفة،وهذا باعتراف العديد من المستشرقين والمؤرخين الغربيين الذين اهتموا بالفلسفة الإسلامية وقضاياها بالدراسة والتحليل.

لكن بالمقابل، لا يمكننا إنكار دور حركة "الترجمة والنقل" في بروز حقلي (الفلسفة والتصوف) ولو بدرجة أقل من دور "النص الديني" من (القرآن الكريم) و(السنة النبوية الشريفة) .

قائمة المصادر والمراجع:

1- محمد، تركي إبراهيم، (2015)، التصوف الإسلامي (أصوله وتطوراته)، (د.ط)، القاهرة (مصر)، دار شتات للنشر والبرمجيات.
2- خطاب، عبد الحميد، (2008)، الفلسفة الإسلامية بين الأمس واليوم، (د.ط)، بن عكنون (الجزائر)، ديوان المطبوعات الجامعية.
3- حمدي زقزوق، محمود، (1984)، دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي، ط1، القاهرة (مصر)، مكتبة وهبة.
4- بدير عون، فيصل، (1983)، التصوف الإسلامي "الطريق والرجال"، (د.ط)، عين شمس (مصر)، مكتبة سعيد رأفت.
5– مراد، سعيد، (2000)، العقل الفلسفي في الإسلام، ط1، الهرم (مصر)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.